حتى اللقاء (قصَّة قصيرة)

مروة مدحت

دارسة مصرية

قلعة قايتباي - عدسة: شادي عاطف

تتلاطم أمواج البحر أمامي، وتضرب صخور الشاطئ بقوة، تود تسلّق أسوار تلك القلعة لتصل لأقدامي المتدلية من فوقها.

شعرت قليلاً بالماء يلامسها قطرات منه، لكنها أرسلت معها قشعريرة باردة في أوصالي، نزعتني من أفكاري وشرودي.

أي أفكار تلك وأي شرود؟! لا يمكن أن يخرجني شيء عما بي، بل كل ما يحدث لي دخيل.. هي الأساس، وكل شيء غيرها ثانوي.

من غيرها أدور في فلكه، ويأخذني من حياتي وعالمي؟! فهي العالم والحياة؛ نظرتها، وعفويتها، وحديثها، وضحكتها، ورقتها، وقلبها.

أتذكر أول نظرة، وأول لقاء.. كان هنا، في هذا المكان القديم، في أحضان تلك القلعة: قايتباي.. الإسكندرية.. عروس البحر، وكانت هي عروس القلب.

أول مرة آتي إلى هنا، وحيث إني أهوى التصوير؛ جئت لألتقط بعض الصور للقلعة مع أصدقائي.

لمحَتْها عدسة الكاميرا، فاختارتها لتتعلق بها، كانت مع صديقاتها تضحك وتلهو بطفولة. سرت وراءها، وأخذَت الكاميرا تلتقط لها الصور رغمًا عني، وكأنها تجرني خلفها في أرجاء المكان.

هنا عند السور.. وقفتْ عليه وخلفها البحر، وأمواجه تتلاحق وكأنها تريد أن تلمسها، ولكنها تهرب منها، وتقفز عنه في رشاقة وخفة، وتركض داخل القلعة.. الضوء خافت، ولكني أرى حولها هالة نور، وكأنها تشع وتضيء المكان.

وأنا خلفها، هنا وهناك، والكاميرا تلتقط الصور لها دون وعي مني، كانت أجمل من شموخ القلعة، وأعظم من قدمها.

كنت أنوي تصوير مكان جميل، ولكن وقعت عيني على كائن أشدّ جمالاً ونبضًا.

في نهاية اليوم، جلست أقلب الصور.. ما أروعها! - ليست القلعة - اتجهتُ إليها، واستجمعتُ شجاعتي لأحدثها، رفضتْ وتركتْني، ورحلتْ مع صديقاتها.

لم أفكر إلا في المضي وراءها.. وأصدقائي! تركتُهم يرحلون، وذهبتُ خلفها حتى وصلتْ إلى منزلها. لمحتنيْ حينها، نظرتْ لي وابتسمتْ، وأدارتْ لي ظهرها، واختفتْ في المبنى، ولكن قبلها قالت بصوت مرتفع: للهفي نفس اليوم بالقلعةلله.

بعدها عدتُ للقاهرة - فأنا لست من أهل الإسكندرية - على موعدي معها في الأسبوع القادم.

عدتُ في نفس اليوم والتوقيت إلى القلعة، وجدتُها مع صديقاتها، فاقتربتُ وتحدثت إليها، فأجابتني تلك المرة.

كيف مرَّ اليوم؟! لا أدري!

تحدثنا في كل شيء، وأي شيء، واكتشفتُ كم هي رائعة أيضًا من الداخل؛ رُوح نقية في عالم زائف، وقلب طاهر في دنيا بلا قلب، وزهرة برية في قلب الصحراء.

تجوَّلنا في أرجاء القلعة وهي تحدثني عنها، وعن حبها الشديد لها، وتعلقها بها منذ الصغر، ولكني لم أفهم سر قدومها الدائم إلى هنا.

أما البحر فكانت تخشاه بشدة.

- كيف وأنت من أهل الإسكندرية؟! البحر عشقكم.

- إلا أنا، أخشاه جدًّا، لم أقترب منه يومًا، ولا أريد، أبقى على الشاطئ بعيدًا، ولكني أحب الحضور هنا أكثر من أي شيء آخر. في أحضان تلك القلعة أنا في أحضان حصن منيع، يقيني من البحر الغدار الذي يريد التهامي، أحتمي هنا منه؛ فأسوار القلعة عالية، مثلما كانت حصنًا يومًا لقائدها فهي حصني أيضًا من البحر.

كانت تلك كلماتها.. تعجبت منها كثيرًا، ولم يزدني هذا إلا إعجابًا بها! فنحن دائما نهوى ما لا نعرفه، أصبحت أهوى غموضها، ورغبت في أن أكون أنا الحصن لا القلعة.

حان الرحيل، واتفقنا على نفس اليوم في القلعة، وأصبح هذا الموعد ثابتًا.

ورغم انشغالي بالعمل كان عليَّ دومًا السفر للإسكندرية كل أسبوع في نفس اليوم دون تغيير. كنت أعتذر عن كل شيء، وأي ارتباط خاص بالعائلة والأصدقاء في هذا اليوم؛ حتى إن شقيقتي اضطرت لتغيير موعد زفافها لعدم استطاعتي الحضور؛ فعليَّ أن أكون في الإسكندرية لأقابلها، فمهما كان حالي، مريض.. متعب.. مرهق.. لابد من لقائها.

طلبتُ منها إحدى المرات أن نرتبط بشكل رسمي، ووافقتْ، وتعرفتُ إلى أهلها، وحينما تطرقنا لمكان السكن رفضتْ بشدة الرحيل عن الإسكندرية.

- سأبقي هنا.

- ولكن عملي، ومنزلنا، وكل شيء هناك بالقاهرة.

- يمكنك أن تأتي كما تأتي.

- لكن الزواج أمر آخر.

- لننقل كل شيء إلى هنا إذن.

- ولم لا يحدث العكس؟ ونأتي معًا كل أسبوع كما كنتُ أفعل.

- لن أرحل.. لا أستطيع.

- ولكن لـــمَهْ؟

- لن تفهم، ولن تصدقني.

ويا ليتني صدقت كلامها وما أجبرتها على الرحيل يوما، يا لي من مغفل أحمق!

أحيانًا.. لا نريد أن نرى أو نسمع أو نصدق ما هو غير منطقي، وما يكون من شيء لا نستطيع تخيله، فلا يمكن أن يكون له وجود أبدًا.

وهي لم تكن منطقية بالمرة، وما كانت تقوله لا يصدق أبدًا، كيف لعقلي الضئيل أمامها، وأمام طفولتها تلك وعفويتها أن يستوعب ما كان بها أو ما كان يدور في عقلها منذ أدركَت حالها ومصيرها؟! المصير الذي تقبلته عن رضًا غير عادي أبدًا.

أن تعرف يومًا مصيرك وقدرك وترضى بقضاء الله، فهذا لا يأتي إلا من قلب طاهر مليء بالحب والنقاء..

أن تعلم نهايتك وتقدم عليها لترُضي من تحب، حتى وإن كان المصير النهاية وكأنك تقدم على الانتحار!

لم أصدقها، وأصررتُ على المعيشة في القاهرة، وأنها إذا لم تفعل فهي بهذا لا تحبني، قالت: «نهايتي بالخروج من هنا».

-ماذا تقولين؟!

-نعم، البحر سيبلعني، ما دمت خارج أسوار القلعة، وخارج نطاقها، إنه يناديني دوما، ولكن القلعة تحميني، وتبعده عني، وبرحيلي عن هنا سيأخذني، إنه يريدني.

«سخافة»..

هذا ما قلتُ لها عندما قالت ذلك، وما أسخفني أنا لقولي ذلك، وعدم الاهتمام بكلامها ومشاعرها!

ولكن ما حدث في اليوم الذي قررتْ السفر فيه للقاهرة كان بمثابة الضربة القاصمة لي، ولسخافتي معها.

كانت تستعد للرحيل وهي مؤمنة بأن ما قُدِّر لها سيحدث إن عاجلاً أو آجلاً، وبما أن هذا سيكون في سبيل حبها، فسيكون في مقابل شيء ثمين، ولا يكون هباءً أبدًا.

«كنت أنتظر الوقت المناسب للرحيل، وأعتقد أن الآن أفضل وقت، في سبيلك لن يكون الرحيل بلا معنى».

كانت كلماتها الأخيرة لي في الهاتف، وإن كنت لم أفهمها.. إلا بعد رحيلها.

استعدَّت للرحيل، والبحر لم يمهلها، لم يتركها للذهاببعيدًا عن شواطئه، كانت دائمًا حوله، ورفض رحيلها بعيدًا عنه.

ومن أمام منزلها استقلت سيارتها أمام الكورنيش مباشرة، وبعد أن سارت بها قليلا في اتجاهها للمغادرة، وبعد أقل من كيلو متر واحد عن منزلها، كانت الحادثة المروعة، وفي يوم من أيام النوة القوية الشديدة العاصفة، والتي تصل فيها الأمواج حتى منتصف الشارع وتغرقه، فإذا بشاحنة عملاقة تنحرف عن الطريق وعن الرصيف، وتخترق الشارع لتصطدم بسيارتها في قوة، وتقذف بها حتى سور الشاطئ الذي تحطم إثر الاصطدام، وتدحرجت سيارتها إلى ما بعد ذلك السور، وجاءت الأمواج قوية عاصفة عنيفة، وسحبت السيارة معها بقوة، وفي غضون ثوان اختفت السيارة، واختفت حبيبتي.. عروس البحر، وعروس القلب!

يا ليتها لم تحاول إثبات حبها لي! ويا ليتني صدقتها!

لكنها قدمت نفسها للموت عن طيب خاطر؛ لأنها تحبني، ولو كنت أحبها حقا لفهمتُ واستوعبتُ، ولكن أحيانًا تكون هناك أشياء أغرب من أن يصدقها عقل، أو يستوعبها إنسان.

وهذه كانت حبيبتي.. أغرب وأجمل فتاة على وجه الأرض.

أجلس هنا في اليوم نفسه من كل أسبوع.

عذرًا أيتها القلعة، كنت أتمنى أن أكون حصنها لا أنتِ، لكني فرطتُ فيها عندما حاولتْ الاحتماء بي، ولأنها تعلم أني لن أحميها قدمت نفسها للموت طوعًا!

كنتِ دومًا وأبدًا أيتها القلعة الحصن، والآن بقيت أنا وحدي أحيا على أيام قضيناها معا.. هنا.. كلها هنا..

لم يكن يومًا مكانا آخر.. وكنت أرى دوما القلعة وكأني أراها لأول مرة؛ لأني معها.

كنت أراها دوما كأول مرة؛ تجري هنا وهناك، وتضحك، وتجوب أرجاء المكان.

ولم يتبق سوى صورها هنا، أقلِّبها واحدة تلو الأخرى؛ لأشعر بها معي.. أسمع ضحكاتها وصوتها؛ لأراها أمامي.

وأنت أيها البحر، هل هدأتَ الآن؟! ألا يمكن أن تأخذني أنا أيضًا، ونكون في أحضانك معا؟!

ترد عليَّ أمواجه، في هدوء تبتعد عني، ولا تلمسني وكأنها تخبرني برفضها، وبأن عروسي كانت له في الأصل، وأنه أخذها كما كان يريد،

انتصر علي؟! احتضنها بدلا مني؟! فاز بها عني؟! إنه يغيظني، ويخبرني أنه الأقوى، ولن يكون أبدًا غيره.

فما أفعل أنا؟! ما كنت يومًا أستحقها لأني خذلتها، وعقابي أن آتي هنا مهما كان حالي من مرض وألم ووجع في اليوم نفسه لتلك القلعة، وعلى تلك الأسوار.. أجلس، وأنظر إلى البحر وأرى وجهها بين أمواجه، وأشتاق إليها حتى اللقاء..

حتى آخر العمر.